نظرة في تاريخ الرواية السورية[1]

د. أدهم مسعود القاق

هناك من أكّد أن فرنسيس مراش (1836- 1873) رائد الرواية السورية؛ إذ كان قد أصدر روايته (غابة الحق في تفصيل الأخلاق الفاضلة وأضدادها) عام 1865م، المفتقدة لأسس مقومات الرواية الفنية، وكتب (مرآة الحسناء) وقبلها حكاية (در الصدف في غرائب الصدف) 1872م، متأثرًا بحكايات ألف ليلة وليلة على المستوى السرديّ منذ 1872، وضمّنها إعجابه بالثورة الفرنسية وباريس التي زارها، وكتب عنها في (رحلتي إلى باريس)، فأظهر افتتانه بالثقافة الأوروبية، رافضًا الجهل المنتشر في سوريا حينذاك، ثم ذكرت رواية (أمراض العصر الجديد) لرفيق رزق سلوم (1891-1916) التي أصدرها 1909 وعدّت أكثر فنيّة من روايتي مراش، كما أنّ موضوعها الرئيس هو نقد العادات والتّقاليد البالية عبر تصويره شخصيات تنامى فعلها مع الأحداث الدرامية التي عالجها في متن روايته، وقد أعدم رفيق رزق في دمشق بأمر من الحاكم العسكري العثماني جمال باشا يوم 6 أيار 1916.

ولابد من ذكر النشاط الحكائي التمثيلي في سوريا عن طريق حرفة الحكواتي الذي كان يتصدر المقهي الشعبي، ويروي للحضور قصصًا شعبيًّا كحكاية الزير سالم وعنترة والظاهر بيبرس،... إلخ، وقد تميّزت مدينة دمشق بهذه الحرفة.

وهناك من يعدّ رواية شكيب الجابري (1912 – 1996) (نهم) 1937م رومانسية الطابع التي صدرت إبان الحرب العالمية الثانية، بعد معاهدة 1936 السورية – الفرنسية ، هي الرواية الأولى لما امتلكه الجابري من أدوات حديثة في السرد وتقنيات فنية ولغة روائية متماسكة، وعلى الرغم من تزامن صدورها مع أحداث خطيرة في تاريخ سوريا؛ إذ حدث سلخ لواء إسكندرون، وقامت ثورة عزالدين القسام السوري في فلسطين، إلّا أنّ أحداثها وقعت في ألمانيا وشخصياتها ألمانية؛ نتيجة خوف مؤلفها من شيوخ الدين المتعصبين من جهة، وانبهاره بالحضارة الأوروبية من جهة أخرى، وقد كتب الجابري بعد نهم: رواية (قدر يلهو) 1939 و(قوس قزح) 1946 و(وداعًا يا أفاميا) 1960.

1- استهلال لقراءة الرواية السورية المعاصرة، نشر في موقع ليفانت للدراسات الثقافية والنشر، عام 2020م

وإذا كان النشـــاط الأدبي قد خفت في فترة الحرب العالمية الثانية؛ إلا أنّه نشـــط فيما بعد على صعد أجناسيّة الأدب الراقي كلها من مسرح وشعر وقصة ورواية، وسرعان ما تعددت أساليب الكتابة، وتنوعت التقنيات في الأجناس الأدبية الراقية، لاسـيّما في السـرد الروائي الذي تنوع في موضـوعاته، فأنتجت الروايات ذات الطابع الرومانسـي حتّى اسـتقلت سـوريا، فسيطرت المدرسـة الواقعية، وتنوعت موضوعات الرواية السورية التاريخية والاجتماعية، والفلسفية؛ تأثّرًا بالنقد والإبداع الروائي المصري.

وقد قسـم الناقد حسـام الخطيب (1932 –) تطور الأدب السـوري في أواخر سـتينيات القرن العشـــرين إلى مراحل ثلاث: مرحلة الطفولة (1937 – 1949)، مرحلة الحراك الأدبي (1950-1958) مرحلة الحكم الليبرالي وازدهار الصـحافة ونمو التعليم، مرحلة النهوض (1959 – 1967) واعتبر أنّ بداية تكوّن سـمات الرواية العربية السـورية في سـتينيات القرن الماضـي، وواضـح أنّه لم يقصد في تقسيماته لتطور الأدب السوري على أساس جيليّ، بل قصد وجود جماعات، ارتبط ظهورها بنشـــاط اجتماعي معيّن لتحقيق مطالب محددة للمجتمع، أو بانتماء مجموعة أفراد لمذهب فنّي أو مدرسـة أو إيديولوجيا او حزب شـموليّ والتزامهم بقواعد مشـتركة فيما بينهم، وهذا ما حدث – مثلًا – مع رواية حنا مينة، المصـــابيح الزرق، 1954، إذ رافق صـــدورها "ضـجيج ثقافيّ قادته الأصـوات اليسارية" في خمسينيات القرن الماضي، مجترة تبشيرها بظهور المذهب الواقعي.

إنّ ما ورد عند الناقد حسام الخطيب، ارتبط بعوامل السياسة وشروطها أساسًا ومعيارًا في تقسيمه لمراحل تطور الرواية السـورية مهملًا عوامل أخرى، وهذا لا يعطينا تصـورًا واضـحًا عن تطور الرواية السـورية وأجيالها، وإذا أردنا تصـنيفها وفق مفهوم الأجيال الأدبية لابدّ من النظر إلى النتاج الروائي بناء على سـمات كلّ جيل وفق تواريخ الميلاد المتقاربة، أو على أســاس من أنســاق الثقافة والتربية المهيمنة، أو دراسـة انعكاس الثورات والحروب والصـراعات والكوارث على أبناء الجيل الواحد، أو بناء على التطورات الحضـارية الطارئة في لحظات تاريخية محددة، وبتضـافر هذه الأسس وتكاملها تُكشف معالم أكثر وضـوحًا لتحديد سـمات جيل أدبي، ومعرفة طبيعة نتاجه الأدبيّ، ورصـد محطات تطور ذاك النتاج وتوصـيف ملامحه، وغالبًا ما ترتبط التغيرات في حركة التاريخ أو الأدب بأسماء رواد في أثناء عملية تشكيل وعي جديد مغاير، رواد يُمنحون طاقات استشرافية، لاكتشاف صيرورة جديدة بعد تغيرات متلاحقة كميًّا على شـــكل ســـيرورات متتابعة، فيقدّمون رؤية مغايرة للســـائد، ويوظّفون

مصطلحات وشعارات جديدة، تصبح هي الرائجة بين أبناء جيلهم، إضافة إلى أن الاصطفاف الجيلي يوضح طبيعة الأحداث التي تسم جيلًا معينًا ببصماتها الجمعية، فالحربان العالميتان وحرب الجزائر وثورة 1968 شكلت أدلة على فهم التغيرات التي طرأت على الأدب الفرنسي، ونكسة حزيران/ يونيه 1967م دلّت على التغيرات التي طرأت على الأدب العربي، ولكنّ السؤال هل ما ذكر يكفي لتحديد صفات جيل أدبيّ؟

هناك مصطلح آخر هو الموجة الأدبية، الذي يشير إلى ملامح وسمات أدبية متميزة، تظهر على نتاج أدباء متشابهين في رؤاهم في أثناء بضعة سنوات، وربما تكون هذه الموجات متنوعة، وتعد ملمحًا من ملامح الجيل الأدبي، أو موجات في جيل متعدد المناحي والتوجّهات.

إنّ الموجات الأدبيّة المتعاقبة، هي ما يطلق على ما أنتجه الروائيون السوريون مكونين جيلًا أدبيًّا واحدًا منذ الرواية الحديثة الأولى عام 1937م حتى نهاية ثمانينيات القرن العشرين، حيث كانت حصيلة موجات كتابة الرواية السورية بين(1870 – 1967) نحو 40 رواية، وممن كتبوا إلى جانب الجابري، معروف أرناؤوط الذي كتب روايات تاريخية، وحصيلة عدد الروايات السورية بين (1970 – 1989) وهي الموجة الثانية تجاوز من 190 رواية ، ومن الممكن أن نطلق على تلك الموجات من كتابة الرواية جيل ما قبل الألفية؛ إذ اتسم المشتغلون في الكيان الثقافي، ومنهم الروائيون، بتماهيهم مع الغرب مكونين تيارات حداثوية مشوهة، لم يستطع أربابها التأثير بثقافة المجتمع وقيمه القروسطية، أو تيارات ماضوية سلفية رمت دعاتها خارج التاريخ، إلى أن حصل النكوص الذي بدأت ملامحه تظهر منذ النصف الثاني من سبعينيات القرن المنصرم، ولعلّ تقسيم د. حسام الخطيب لجيل الرواية العربية حتى 1967م، قصد به موجات أدبية سارت فيها الرواية السورية، وليس أجيالًا، لأنّ شرط تكوّن الجيل الأدبي هو الخروج من منظومة معرفية وقيمية وجمالية ماضية إلى منظومة مستحدثة.

جيل ما قبل الألفية حتى مطلع عقد تسعينيات القرن العشرين

ارتبطت كتابات السرد العربي في القرن التاسع عشر وحتى العقد الثاني من القرن العشرين مع مفاهيم النهضة العربية، وخلط الرواد بين السيرة والمقامة والحكايات والرواية، ولعلها تعد المرحلة الأولى من تكوّن جيل ما قبل اللفية، ولعلّ بداية مسار الرواية الفنية العربية – وفق ما اصطلح عليه

– هي رواية زينب لمحمد حسين هيكل، وهي إحدى تجليات تفاعل المثقفين العرب مع الحداثة الأوروبية، ومنها تكوّنت المرحلة الثانية لهذا الجيل، التي نضجت الرواية في أكنافها في خمسينيات القرن العشرين، وقد أذن رواد جيل ما قبل الألفية لانطلاقة جيل الألفية منذ تسعينيات القرن العشرين وحتى عام 2011 عام ثورة الربيع العربي، فظهر كتابات سردية جديدة ومن الممكن اعتبارها المؤسسة لقيام جيل ما بعد الألفية.

استدعى بعضٌ من روائيّ جيل ما قبل الألفية التراث؛ مجربين توظيف أحداث التاريخ ورجالاته، منهم من تغنّي بالماضي؛ مفتخرًا بالسلف الصالح، وأكثرهم اختاروا موضوعات تراثية طُرِقَتْ في سياق حداثة العالم الغربيّ، وقد تنوعت أساليب السرد وموضوعاته والتقنيات الفنيّة المستخدمة، على الرغم من اشتراكهم بالتماهي مع التجارب الغربيّة، ليس الحداثويين فحسب، بل السلفيون أيضًا؛ إذ إنّ حركة الاستشراق الغربية هي من حددت هويتنا الثقافية منذ القرن التاسع عشر، فتلقّفها المثقفون العرب من أيدي المستشرقين، لاسيما إبان مرحلة الاستعمار الغربي، وفهموا طبيعة هويتهم الثقافية وفق ما جاء في مؤلفات المستشرقين، وفسّر وأوّل وَفق المصالح المادية والاجتماعيّة، ضمن تجاهين تاريخيين رئيسيين، الحداثوي: الذي أفرز تيارات الفكر السياسيّ العربي المعروفة (الليبرالي والقومي والاشتراكي والشيوعي)، والسلفي: الذي تعددت تجلياته فمنها السلمي ذي التوّجه الاجتماعيّ ومنها الجهادي أو التكفيري وألوان متدرجة فيما بينهما.

والحق أنّ الكتابة السردية الحديثة في سوريا اهتمت بالقضايا والموضوعات الوطنية والقومية والاجتماعية والتربوية، كما كثرت الموضوعات المتعلقة بالأرياف، ووظّف الروائيون خطاب السخرية والتهكم من أحوال التخلف والقهر، واستعان بعضهم بالخطابات المرموزة حين تناولوا الجانب السياسيّ، وعلى العموم ساد في موجات الرواية السورية لدى جيل ما قبل الألفية النزوع تجاه الرّومانسيّة الحكائيّة، ابتداء من الرواية السورية الفنية الأولى (نهم) للجابري – كما مرّ معنا آنفًا – كما كتب حسيب كيالي (1921 – 1993) رواية (مكاتيب الغرام) 1958 التي غلف خطابها بالسخرية اللاذعة، ورواية (أجراس البنفسج الصغيرة) 1970، ورواية (نعيمة زعفران) 1993، وأصدر فارس زرزور(1930 – 2003) ثلاثتيه التاريخية (حسن جبل) 1969 و(لن تسقط المدينة) 1969، ورواية (كل ما يحترق يلتهب) 1986، وكتب صلاح دهني (1925 – 2017) رواية (ملح

الأرض) 1972، وسلامة عبيد (1921 – 1984م) كتب رواية (أبو صابر، الثائر المنسي مرتين)1971، و(ذكريات الطفولة) 1978 وهي سيرة روائية، ومن كتابات بديع حقّي (1922 – 2000م)، رواية (جفون تسحق الصور) 1968، و(أحلام الرصيف المجروح) 1973، (همسات العكازة المسكينة) 1987، وقد غلب على موضوعات الرومانسيين الجانبين التاريخيّ والاجتماعيّ، إلى أن كتب عبد السّلام العجيليّ (1918 – 2006) رواية (باسمة بين الدموع) 1959 فأضفى عليها قدرًا من الحكائية الموشحة بنزعة رومانسية، وانقطع عن كتابة الرواية، وكتب القصة القصيرة، إلى أن أصدر روايته الثانية (قلوب على الأسلاك) 1974 وأخرى (ألوان الحب الثلاثة) 1975، ثمّ (أزاهير تشرين المدماة) 1977، و(المغمورون) 1979، ورواية (أرض السّياد) 1998، ورواية (أجملهن) 2001، وأصدر وليد مدفعي (1932 – 2008) رواية (مذكرات منحوس أفندي) 1966م موضوعها انتقادي وخطابها ساخر واستخدم علامات سيميائية للوصول إلى المعنى، ورواية (غرباء في أوطاننا) 1972، ورواية (قياديون بلا عقائد) 1992، ويبدو أن تجربة مدفعي تنوعت، فكتب في المسرح والقصة والنقد، كما كتب نبيه سلامة (1908 – 1993) البرازيل، رواية (جاكلين أو لذائذ الانتقام) ضمن تجاه الرومانسية.

ثمّ ساد المذهب الواقعي تساوقًا مع سيادته في الدول الغربية المتحضرة، فنجد من كتب في الواقعية الحكائيّة، وكانت رواياتهم نقدية أو تسجيلية وثائقية أو تقدمية الطابع، كرواية (المصابيح الزرق) 1954 لحنّا مينة، كما صدرت لصباح محي الدين (1925 – 1962) رواية وحيدة (خمر شباب) 1958، وأدمون بصال رواية (شخصيات تمر)، و صدقي إسماعيل (1924-1972) رواية (العصاة) ، 1964، ثمّ كتبت روايات وفق مقتضيات المذهب الواقعيّ، كرواية (في المنفى) لجورج سالم، وفي الواقعية الاشتراكية المصابيح الزرق 1954 لحنا مينة، التي صور فيها بيئة الفقر في الساحل السوريّ إبان الحرب العالمية الثانية.

عبر الإطلالة على خارطة الرواية السورية عقب مرحلة الانقلابات العسكرية التي حدثت في سوريا بعد نكبة فلسطين، نجد نتاج مطاع الصفدي (1929 – 2016)، الذي أصدر حينذاك روايتي

(جيل القدر) و(ثائر محترف) ممثلًا الاتجاه الوجودي، وفي سياق التجريب في كتابة الرواية السورية تمّ التركيز على الشـخصـيّة الرّوائيّة المهيمنة، ونجد ذلك في روايات عبد النبي حجازي (1938 – 2013م) الذي أصـدر رواية (قارب الزمن الثقيل) 1970 و(السـنديانة) 1971 و(الياقوتي) 1977 و(الصـخرة) 1978، و(المتألق) 1980، ورواية (المتعدّد) 1982 و(صـوت الليل يمتد بعيدًا) 1989، وأصـدر فاضـل السـباعي (1929 –) روايته (ثمّ أزهر الحزن) 1963 ورواية (ثريا) 1963 و(رياح كانون) 1963، ورواية (الظمأ والينبوع)، كما كتب إنعام الجندي (1924 – 2015) من الروايات: (زمن الرعب) 1961 و(انفجار) 1975 و(الجرثومة) 2007.

ووفق مقتضـيات المدرسـة الرّمزيّة نجد وليد حجّار(1932 –) كتب ثلاثيته (البحث عن الأنا) 1973 المكونة من (مسـافر بلا حقائب) و(السّـقوط إلى أعلى) و(رحلة النيلوفر أو آخر الأمويين) وصدر له وأيضًا رواية (هيلانة) 2002، وحجّار موسيقي بارع وفنان تشكيليّ مهم، ولكنّه لم يتسع له وطنه، فهو على الرغم من وجوده في ريف دمشق إلا أنّه معروف بأنشطته في الغرب، وكذلك الأمر مع الروائية السورية منى جندلي التي تكتب بالإنجليزية .

وكان للروائيات السوريات نصيب في إسهامهن برسم معالم خارطة السرد السورية، ومنهن: وداد سـكاكيني (1913 – 1991) كتبت رواية (أروى بنت الخطوب) 1946، و(بين النيل والنخيل) 1947، و(الحب المحرم) 1947

وكوليت خوري (1937 –)، كتبت قصص سيرية، ومنها (كيان) 1968، و(دمشق بيتي الكبير) 1968 و(المرحلة المرة) 1969، و(دعوة إلى القنيطرة) 1976، ولها قصص قصيرة كثيرة.

وقمر كيلاني (1932 – 2011) ومن رواياتها: أيام مغربية) 1965، وبستان الكرز) 1977، و(الهودج) 1979، (حب وحرب) 1982، (طائر النار) 1981 و(الدوامة) 1981،...

أمل جراح (1945 – 2004م)، كتبت رواية (الرواية الملعونة) 1967

ألفت الأدلبي (1912 – 2007م) كتبت رواية (دمشق يا بسمة الحزن) 1981، (حكاية جدي) 1999

ونظرة عامة يلقيها الباحث على موجة كتاب الرواية السورية منذ خمسينيات القرن الماضـي، يجد انقسـام بين توجّهات من النزوع نحو الرومانسـية الموشـحة بجماليات المدرسـة الرمزية، والمدرسـة

الواقعية ذات التوجّه الاشـــتراكي، وآخر وجودي، وغير ذلك من التوجّهات في الكتابة التي اعتراها التخمين والتجريب في المجهول مع الخلط بالمفاهيم والمصـــطلحات بين المذاهب والمناهج... إلخ؛ حتى أمسى الارتجال في تأليف السرديات هو الغالب، ومن ثمّ النقد الانطباعي هو الأكثر شيوعًا.

ولعلّ ياسـين رفاعية (1934 – 2016) ، حاول تقليد التجارب الروائية في الغرب، وقد أصـدر رواية (الممر) 1978 و(مصـرع ألماس) 1981، و(وردة الأفق) 1985، و(دماء بالألوان) 1988، و(رأس بيروت) 1992، و(امرأة غامضـــة)1993، و(أســـرار النرجس) 1998، و(وميض البرق) 2002، و(الحياة عندما تصـبح وهمًا) 2006، و(أهداب) 2008، و(القمر بجانبه المظلم) 2012، و(من يتذكر تاي) 2012، و(ياســمين) 2015، وممن حاول تقليد الغرب أيضًـــا أديب النحوي (1920 – 1998) الذي أصـــدر رواية (جو مبي) 1966، و(عرس فلســطيني) 1970، و(تاج اللؤلؤ) 1980، و(ســلام على الغائبين) 1981، و(آخر في شـــبه لهم) 1991، ومن الذين تأثّروا بالرؤى الغربية من أبناء هذا الجيل: محمد راشـــد في روايته (المحمومون)، وجورج ســالم (1933– 1977) في روايته الوحيدة (المنفى(

ومن الملاحظ ارتباط نشاط السرد الروائي السوري منذ أواخر خمسينيات القرن الماضـي – غالبًا – بزيف الدولة الشـمولية وفسـادها، وازداد الأمر سـوءًا منذ مطلع السـبعينيات؛ إذ انعكسـت سـياسـة السـلطة الطائفية على سـلوك القيّمين على مؤسـسـاتها الثقافية الموجّهة، ومن ثمّ قيّدت شـروط الكتابة الإبداعية وفق عقلية الفروع الأمنية وشروطها، لاسيّما تلك السرديات المنتجة – في أكناف مؤسسات السـلطة – من قبل روائيين وأدباء موظّفين في تلك المؤسـسـات، التي أضـحت منغمسـة ببؤر فسـاد السلطة كمؤسسات الإعلام والنقابات والأحزاب والاتحادات المهنية... إلخ.

في رواية خمسـينيات القرن العشـرين وسـتينياته كانت شـخوص الروايات السـورية – غالبًا – من بيئات فقيرة، بســيطة، ويتمّ تصـــويرها من الخارج، من دون الولوج إلى بواطنها وعوالمها الداخلية، فالنزعة الســائدة في تلك المرحلة هي النزعة التصــويرية، ســوى أنّه وجدت روايات ســورية حاولت

معالجة شخصيات من الطبقة الوسطى المؤثرة في حركة المجتمع، ولعله من المفيد استكمال إطلالتنا إلى المشهد الروائي السوري في مرحلة ستينيات القرن الماضي.

وفي أثناء نصف قرن من موجات الكتابة الروائية السورية بات حنا مينه (1924 – 2018) من أغزر الكتاب إنتاجًا والأكثر انتشارًا في الأقطار العربية، وقد اختار من الموضوعات ما تعلق بالإفقار والاستبداد والقهر، ومن رواياته التي وصل عددها إلى الأربعين رواية نذكر: (الثلج يأتي من النافذة) 1969، ورواية (الربيع والخريف) المتعلقة بنكسة يونيه / حزيران وترابط أسبابها وتداعياتها بسياسات الاخر الإمبرياليّ، و(حمامة زرقاء في السحب) التي روى فيها قصة إصابة ابنته بمرض السرطان، ومن روايته المهمة (الشمس في يوم غائم) التي طرح فيها أسئلة عن الحياة والموت والحب والمرأة، و(الكتابة على الأكياس) عن طفولته القاسية، وفي (الياطر) التي عالج فيها مشكلة ذكورية الرجل الشرقيّ، الذي يلجأ إلى المومسات، ناسيًّا زوجته، كما يلحظ ذلك في روايتيه (المستنقع) و(بقايا صور)، ولعل اختياره عالم البحر بصفته فضاء مكانيًّا لرواياته جعله أديب البحر، وقد كشف حنا مينة عن سمات شخوص روايته الإيجابية، فهم مغامرون وكرماء وشجعان ويحاولون امتلاك مصائرهم بأيديهم، ونحا بموضوعاته نحو الحرية والحب والشهامة بمواجهة الظلم الاجتماعي والقهر السياسي والاضطهاد الطائفيّ، وشرع حنا مينة في تغيير منهاجه الواقعي الاشتراكي منذ أواخر الثمانينات؛ إذ اهتمّ ببناء شخصيات مأزومة في رواياته، وجعلها تخوض في أزمات نفسية معقّدة؛ نتيجة صراعاتها الاجتماعية والسياسية التي تفوق طاقاتها الذاتية، محاولًا ان يلجأ لأساليب تيار الوعي عن طريق البوح بمكنونات نفوسها وأحلام اليقظة، موظّفًا الكوابيس والأحلام للكشف؛ عما تستبطنه في ساحة اللاوعي لديها، ومن رواياته أيضًا (النار بين أصابع امرأة) وعاهرة و(نصف مجنون)، و(شرف قاطع طريق .(

وفي سّياق تلك الموجة الرّوائيّة في سوريا، نجد وليد إخلاصي (1935 –) الذي نوع بكتاباته أيضًا، وقد أصدر روايته الأولى (شتاء البحر اليابس) 1965، ورواية (أحضان السيدة الجميلة) 1969، و(أحزان الرماد) 1975، و(الحنظل الأليف) 1980، ورواية (خان الورد) 1985،(وباب الجمر) 1985، و(ملحمة القتل الصغرى)، و(حكايات الهدهد)، و(باب الجمر)، و(دار المتعة)، وقد وصف في أعماله أحياء حلب وميزاتها، وجان ألكسان (1935 – 2016م) أصدر من الروايات

(النهر) 1979 و(بيدر من النجوم) 1979، (الجســـر) 1982، و(رحلة إلى الفضـــاء) 1986، و(سعيد في حقول الأرز) 1988، و(أوراق من تشرين) 1988، و(زينب في ميسلون) 1989.